

2013

السلفيّة الريفيّة الصاعدة في سوريا

حركة أحرار الشام الإسلاميّة نموذجاً

مركز دراسات الجمهورية الديمقراطيّة

حازم السيد

11/27/2013



السلفية الريفية الصاعدة في سوريا ، حركة أحرار الشام الإسلامية نموذجاً

تبدو حركة أحرار الشام أحد أهم مفرزات الريف السنّي في سياق توليفة معقدة من الديناميات الرافعة، والتي تتمثل في عسكرة الصراع السوري ودعم القوى الإقليمية للقوى الإسلامية وتخلّي الغرب عن دعم التيارات الديمقراطية العلمانية وهزيمة مشروع الدولة الوطنية لقوى التحرر العربي، وتحولها إلى دولة التسلط والقهر والاستبداد واشتغال الدور الروحي للدين في فترات الأزمات والحروب، وعجز حراك النهضة العربية عن القيام بالإصلاح الديني وبلورة فكر إسلامي حديث واشتغال الدينامية النفسانية للثورة السورية كثورة الإنسان المقهور الذي يلجأ إلى السلفية والعنف والتغني بماضي الأجداد للتوازن والدفاع عن نفسه ضداً وضعية القهر المفروضة عليه من قبل الحاكم المتسلط.

مع اندلاع الثورة السورية، دخل السوريون إلى عالم سؤال الحرية، ولكنهم اليوم، بعد عسكرة الصراع وصعود التعبيرات الريفية، يجدون أنفسهم عالقين في سؤال الدولة، فصعود هذه الحركة وأقرانها يثير تساؤلات حقيقية تمس طبيعة الكيان الوطني السوري وتوضح هزيمة المشروع المدني وزيف المشاريع الطليعية. بل إن صعودها في سياق الربيع العربي وما حمله من ازدياد للعقلية الطليعية ومجتمعاته السياسية ونخبه الثقافية يفتح الباب على مراجعات جذرية لمفاهيم العلمانية والتنوير والدولة والوطن ويتطلب مقارنة تفاعلية تقدمية عليها الإحاطة بمجمل هذا الواقع المعقد.

حازم السيد

كاتب سوري شاب مقيم في بيروت. سبق أن نشر في كتاب "استراتيجية سلطة الاستبداد في مواجهة الثورة السورية" الصادر عن المركز بحث بعنوان "الانتفاضة السورية خارج السياق، داخل التاريخ".

يعمل كمدير للمحتوى الرقمي في مركز دراسات الجمهورية الديمقراطية ومتدرب في برنامج BBC Media Action.

للكاتب مدونة الكترونية بعنوان سيروريا ينشر فيها نصوصه.

فهرس المحتويات

3 مقدمة
4 النشأة والامتداد الجغرافي
6 التمويل
7 الاستراتيجية العسكرية
10 الهوية الأدبولوجية
12 المرجعيات النظرية
14 النشاط الأهلي والمدني
16 الانتهاكات الحقوقية
18 خلاصة

مقدمة

تحاول هذه الدراسة استقصاء نشأة وتطور حركة أحرار الشام الإسلامية وخريطة تمددها الجغرافي ومصادر تمويلها وإستراتيجياتها العسكرية، وأهم العمليات الميدانية التي ساهمت فيها، وطبيعة طروحاتها الأيديولوجية ومرجعياتها النظرية وبنائها التنظيمية ونشاطاتها المدنية وانتهاكاتهما الحقوقية وتحالفاتها السياسية والعسكرية وعلاقتها بباقي الأطراف المنخرطة في الصراع السوري، كالمعارضة السياسية والقوى الدولية والمنظمات الحقوقية والجيش السوري الحر وتنظيمات القاعدة وتعبيرات المجتمع الكوردي العسكرية والسياسية.

جاء اختيار حركة أحرار الشام الإسلامية على اعتبارها أكبر التشكيلات العسكرية التي تقاتل النظام السوري، وإحدى أبرز القوى السلفية الصاعدة في سوريا، وعلى اعتبارها واحدة من القوى المسيطرة على مساحات واسعة من سوريا، والتي تحاول التأسيس نظرياً وعملياً لمشروع مجتمعي متكامل شكلت عسكرة الصراع السوري وأقلمته سياقاً حاملاً لهذا المشروع، الذي يحقق يوماً تلو الآخر نجاحاً في احتكار صفة "معارضة الداخل".

يأتي هذا البحث من الناحية المنهجية والسياسية كمحاولة لمعرفة الآخر، الإسلامي، معرفة مطابقة، عبر دراسة نموذج متماسك لمشروع إسلامي بعيداً عن أفخاخ المقاربات الثقافية والنزعة العلمانية النزقة والمنهجيات الاستشراقية والتي ترقص على إيقاع السرديات الإعلامية مختزلةً الإسلام السياسي بكاريكاتور القاعدة الدموي الهزيل، مستسلمةً لهموم الفكر اليومي ومآسي واقع الانتقال السياسي الراهن.

النشأة والامتداد الجغرافي

في حديثه مع مراسل قناة الجزيرة الفضائية الشهير¹، تيسير علوني، يقول مؤسس حركة أحرار الشام الإسلامية، حسان عبود، الملقب بأبي عبد الله الحموي إن "كتائب أحرار الشام"، وهو الاسم الذي اتخذته الحركة عند انطلاقها، سبقت في نشأتها الجيش الحر، حيث تمّ تشكيلها في شهر أيار عام 2011، ولكنها استمرت بإعداد خلاياها سرّاً حتى لحظة الإعلان عن تشكيل الكتائب في نهاية عام 2011.

قامت بتأسيس الحركة نواةً من النخب السلفية³ التي كانت تنشط في المجال الدعوي ونشر الفكر السلفي قبل الثورة والتي زاد تشبيكها مع بعضها في محطاتٍ عديدةٍ كسجن صيدنايا، وقد عرفت الحركة، عند انطلاقها، بعلاقاتها المميزة مع لواء صقور الشام الذي يقوده عيسى الشيخ، زميل حسان عبود في سجن صيدنايا⁴، كما امتازت الحركة باحتوائها على عددٍ كبيرٍ من النخب المؤهلة دينياً في كليّات الشريعة الحكومية وترؤسهم للمراكز الهامة في الحركة على الصعيدين الشرعي والعسكري.

عُرفت الحركة بمرونتها في انتقاء عناصرها من أهالي المناطق النائية ف"عناصر «كتائب أحرار الشام» متفاوتو الالتزام وقليلو الانسجام في مظهرٍ واحدٍ على ما يفترض انتماءهم إلى جماعةٍ «سلفية جهادية». إنهم من سوريي الداخل الذين لم تتح لهم خبراتهم المحدودة في العمل «الإسلامي» احتكاكاً بخبرات «السلفية الجهادية» العالمية، وهم في الوقت نفسه طامحون لوراثة جماعة الإخوان المسلمين، وهو ما يدفعهم إلى تفادي الانكفاء بمظاهريهم وأنشطتهم عن المؤمن العادي من السوريين، وعن ممارسة طقسٍ دينيٍ تقليديٍّ قد لا ينسجم مع الطقس السلفي في الممارسة، مع الإبقاء على «العقيدة» حبيسة النوايا، على ما تتيح السلفية من تقية.⁵ ويقول أبو عبد الله إن الكتائب تضمُّ في صفوفها شباباً ثائراً "قد يكون عندهم تقصيرٌ في بعض الصفات الإسلامية مثل التدخين والتقصير في أداء صلاة الجماعة والاستماع للأغاني"، مضيفاً أن قيادة التنظيم تسعى "لترسيخ المفاهيم الإسلامية الصحيحة" البعيدة عن التشدد بالتدرج وإعذار من يخالفهم"⁶.

تركز نشاط الحركة في الشمال الغربي، حيث نشأت في قرى ومدن ريف إدلب كسراقب ومعرة النعمان وأريحا وجبل الزاوية وتفتناز وجرجناز وجسر الشغور وبنش وسرمدة وغيرها، وسرعان ما توسّعت باتجاه ريف حلب وريف حماة ودير الزور وريف حمص وريف اللاذقية والرقّة ودرعا ودمشق وريفها. ويقول أبو عبد الله الحموي إن للحركة امتداداً في المحافظات

¹ راجع مقابلة "حسان عبود.. سلسلة رموز المعارضة المسلحة المعارضة المسلحة" برنامج لقاء اليوم، تيسير علوني، موقع قناة الجزيرة الفضائية.

² راجع تقرير "أحرار الشام يشكون غياب الدعم العربي" موقع قناة الجزيرة الفضائية.

³ راجع تقرير أ ف ب "أحرار الشام» حركة معارضة أقل تطرفاً وأكثر قومية من «النصرة»، صحيفة الحياة 14 كانون الثاني 2013.

⁴ راجع "قصة «أصدقاء صيدنايا»: أقوى ثلاثة رجال في سوريا اليوم!" موقع مجموعة الجمهورية.

⁵ راجع تقرير "إدلب: للحيمة المحلية لـ«كتائب أحرار الشام» تعيق التحاقها بـ«الجهاد العالمي»" صحيفة الحياة، حازم الأمين.

⁶ راجع تقرير "أحرار الشام يشكون غياب الدعم العربي" موقع قناة الجزيرة الفضائية.

السورية كلها عدا السويداء وطرطوس⁷ ومن الصعب الحصول على إحصائية دقيقة لعدد مقاتلي الحركة ولكننا نستطيع الجزم أن عددهم اليوم لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل بل وتقول بعض التقارير أن عددهم قد يبلغ ثمانية عشر ألف مقاتل.

عملت الحركة على التوسّع تدريجياً بحيث تحافظ نواتها المؤسّسة على خيوط صناعة قرار الحركة، فقد ساهمت في بعض الائتلافات العسكرية الكبرى كجبهة ثوار سوريا إلا أنها لم تسع إلى الاندماج مع تشكيلاتٍ عسكريّةٍ بارزةٍ، وأثرت العمل على استقطاب التشكيلات الصغيرة والمتوسطة. نشأت كتائبُ أحرار الشام من اجتماع ما يقارب الثلاثين كتيبة⁸ وازداد عددها ليقترب التسعين كتيبةً إثر انضمام عددٍ من الكتائب والألوية؛ أشهرها لواء الإيمان الذي ينشط في ريفي حماة وإدلب. وقد اتّحدت فيما بعد مع عددٍ من الألوية الوازنة لتشكيل ما بات يُعرف اليوم بحركة أحرار الشام الإسلامية، كلواء الحق الناشط في ريف حمص وجماعة الطليعة الإسلامية الناشطة في ريف إدلب وحركة الفجر الإسلامية الناشطة في ريف إدلب وحلب.

كما قامت الحركة بالتراجع عن الاندماج مع الألوية السابقة، وتحويله إلى شكلٍ من أشكال الاتحاد وتوسيعه ليضمّ تشكيلاتٍ عسكريّةً أخرى تمتاز بتواجدها في مناطق متفرقةٍ من سوريا لتشكّل ما بات يُعرف بالجبهة الإسلاميّة السورية، والتي تُعدّ اليوم أكبر تشكيلات المعارضة العسكرية في سوريا، حيث تشكلت الجبهة من اتحاد حركة أحرار الشام (كتائب أحرار الشام ولواء الحق وحركة الفجر و..) مع "كتائب أنصار الشام" (في اللاذقية وحولها)، و"جيش التوحيد" (في دير الزور)، و"كتيبة مصعب بن عمير" (في ريف حلب)، والجماعات "كتيبة صقور الإسلام"، و"كتائب الإيمان المقاتلة"، و"سرايا المهام الخاصة"، و"كتيبة حمزة بن عبد المطلب" التي تعمل في منطقة دمشق⁹. ويبدو أن هذا التحالف جاء تمهيداً للمضي في طرح الأبعاد السياسية لمشروعها المجتمعي المتكامل بعد وصول الملف السوري إلى مرحلة الحسم السياسي إقليمياً ودولياً.

أنكرت كتائب أحرار الشام، في نشأتها، وجودَ مقاتلين أجنبي في صفوفها، إلا أن التقارير الميدانية أكدت وجود عددٍ محدودٍ منهم في صفوف الحركة¹⁰، ويتضمّن موقعها اليوم على شبكة الإنترنت تبويهاً خاصاً بالشهداء نشرت فيه صوراً لشهداء أجنبي من الحركة. ولم تبدِ الحركة يوماً امتعاضاً من هؤلاء المقاتلين، ولكنها لم تعمل على التحوّل إلى بؤرةٍ لاستقطاب هؤلاء المقاتلين خوفاً من الضربة الإعلامية والسياسية التي قد تلحق بالحركة إثر وجودهم.

⁷ راجع مقابلة "حسان عبود.. سلسلة رموز المعارضة المسلحة المعارضة المسلحة" برنامج لقاء اليوم، تيسير علوني، موقع قناة الجزيرة الفضائية.

⁸ راجع تقرير أف ب "أحرار الشام" حركة معارضة أقل تطرفاً وأكثر قومية من «النصرة»، صحيفة الحياة 14 كانون الثاني 2013.

⁹ راجع ميثاق الجبهة الإسلامية على موقع حركة أحرار الشام الرسمي.

¹⁰ راجع تقرير "إدلب: اللحية المحلية لـ«كتائب أحرار الشام» تعيق التحاقها بـ«الجهاد العالمي»" صحيفة الحياة، حازم الأمين.

التمويل

تعتمد الحركة في تمويلها على ثلاثة مصادرٍ أساسيةٍ، التمويل الذاتي والتمويل عبر الشبكات الجهادية العربية والعالمية والتمويل الإقليمي، فطبيعة كتائب الحركة وانبثاقها من قلب المجتمعات الأهلية جعلتها تحظى بدعم وتمويل العديد من أثرياء ومنتفذي المجتمعات المحليّة، كما اشتملت الإستراتيجية العسكريّة للحركة على مهاجمة القطع العسكريّة الغنية واغتنام أسلحتها واستفادت من خبرات بعض أعضائها في إنتاج المتفجرات محليّة الصنع الرخيصة وكثفت استخدامهما، في نشأتها، لتنفيذ عمليّاتٍ وازنةٍ تحظى بالاهتمام الإعلامي وما يستقطبه ذلك من دعمٍ وهبات، كما اشتملت طريقة تعاطيها المرنة والإيجابية مع المجتمعات الأهلية على محاولة اكتسابٍ مشروعٍ سلطويّةٍ تمكّنها مالياً من استثمار الموارد الحكومية¹¹ واغتنام ثروات المرافق العامة الواقعة تحت سيطرتها، فعلى سبيل المثال وباعتبارها أكبر الفصائل المشاركة في عملية تحرير الرقة قامت الحركة بالسيطرة على مقرّ البنك المركزي والذي يُشاع أنه كان يحتوي لحظة التحرير على ما يتراوح بين 4 و 6 مليار ليرة سورية¹².

كما تشكّل السيطرة على المعابر الحدودية مصدراً أساسياً من مصادر تمويلها، فالحركة تدير رسمياً اثنين من المعابر الحدودية مع تركيا، باب الهوى في إدلب ومعبر تل أبيض في الرقة، وتفرض رسوماً على الدخول وتتقاسم مع داعش جزءاً من رسوم الدخول في معبر تل أبيض بعد حصول صراعٍ بين التشكيلين على إدارة المعبر انتهى برضى داعش بإدارة الحركة للمعبر مقابل حصولها على جزءٍ من المداخل واشتراك بعض عناصرها في الإدارة¹³، كما تسيطر الحركة على حصّةٍ وازنةٍ من المعابر الحدودية في درعا دون الاستفادة المادية منها حالياً بسبب إيقاف الأردن لعمل هذه المعابر.

اعتمدت الحركة أيضاً على علاقات مؤسّسها التي اكتسبها خلال نشاطاتهم الدعوية والسلفية قبل الثورة، حيث تشير المصادرُ إلى أن حركة أحرار الشام قد حظيت بتمويل الهيئة الشعبية الكويتية التي يتزعمها الشيخ الكويتي حجاج العجمي¹⁴ كما كان لها علاقاتٌ مهمة مع الشيخ حكيم المطيري. وكان لقطر وتركيا دورٌ كبيرٌ في تقديم الدعم العسكري النوعي للحركة، فقد حظيت، على سبيل المثال، بحصّة الأسد في إحدى صفقات تمرير صواريخ الكونكورس وحشوات (بي - 10)¹⁵ كما تمّ تكريسُ الجبهة الإسلاميّة السورية من قبل هذه الدول كقناةٍ لتمير الحملات الإغاثية الضخمة ودعم العمل المدني، فقد

¹¹ راجع تقرير "حركة أحرار الشام، إعادة تشغيل المصانع في حلب" على موقعها الرسمي وعلى موقع اليوتيوب.

¹² راجع "الرقة: عن واقع الكتائب العسكرية، وإدارة المدينة المحررة، والثورات اللاحقة"، محمد العطار، مجموعة الجمهورية.

¹³ راجع تقرير "حركة أحرار الشام الإسلامية تصدر بياناً حول تعليمات المرور من معبر تل أبيض الحدودي مع تركيا"، موقع الباب بريس.

¹⁴ راجع "المعارضة المسلحة السورية: وضوح الهدف وغياب الرؤية"، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ص 39.

¹⁵ راجع تقرير "أحرار الشام" تنسّم 250 صاروخ كونكورس "صحيفة تقرير الشرق الأوسط".

حظيت بدعم "صندوق الإغاثة والمساعدات الإنسانية" وهي منظمة مجتمعٍ مدنيٍّ مرتبطةً بالحكومة التركية، و"جمعية قطر الخيرية"، وهي منظمة مجتمعٍ مدنيٍّ أخرى مرتبطة بالحكومة القطرية¹⁶.

بدأت حركةُ أحرار الشام بالتمويل الذاتيِّ واعتمدت على التمويل الشبكي والحكومي لتوسيع نشاطاتها، ولكنها عملت بدأبٍ وجهدٍ من أجل العودة إلى مصدر التمويل الأول لتنتهي إلى مجموعةٍ وازنةٍ من مصادر التمويل الذاتي والتي تضمن لها استقلاليةً نسبيةً قادرة على دعم مشروعها السياسي والمجتمعي وعلى تحويلها إلى قوةٍ قائمةٍ بحدِّ ذاتها، مما يجبر التمويل الحكومي والشبكي على ردها للحصول على رضاها وعدم التحول إلى ضحيةٍ من ضحايا مكر التاريخ!

الاستراتيجية العسكرية

امتازت أحرار الشام في بداية ظهورها بعملياتها النوعية الكبيرة، والتي تعتمد على زرع العبوات الناسفة على جوانب الطرق لاستهداف الإمداد العسكري وعرقلته¹⁷ وقد تمكنت من تنفيذ هذه العمليات بسبب خبرة أعضائها في تصنيع العبوات الناسفة محلية الصنع والتي اكتسبوها خلال جهادهم في أفغانستان والعراق، كما قامت بعددٍ من العمليات "الاستشهادية" باستخدام السيارات المفخخة¹⁸ إلا أنها كانت تنفي رسمياً استخدامها "للاستشهاديين" مدعيةً أن السيارات كانت تُقاد عن بعدٍ أو أنها كانت تُقاد من قبل عناصر الشبيحة على الرغم من أن أنصارَ الحركة على شبكات التواصل الاجتماعي كان لهم كلامٌ آخر.

تمكنت أحرارُ الشام عبر احتوائها على نخبةٍ عسكريَّةٍ خبيرةٍ بصناعة المتفجرات ومدفيعات الهاون والراجمات من تحقيق رصيدٍ عسكريٍّ مميّزٍ سرعان ما جذب المزيد من التمويل الشبكي والحكومي¹⁹ لتمكّن من الحصول على كمياتٍ جيدةٍ من القنصات ومضادات الدروع، والتي مكنتها من اتباع تكتيك الحصار للحواجز والقطع العسكرية واجتياحها واغتنام أسلحتها، وقد امتازت الحركة بنشاطٍ لعله الأكبر على جبهات القتال، فلا يوجد عمليةٌ عسكريَّةٌ مهمةٌ إلا وكانت الحركة أحد قادتها أو المشاركين فيها، وهو ما مكنتها من اغتنام أسلحةٍ نوعيّةٍ من مخازن النظام²⁰ والحركة اليوم تستعين في تنفيذ عملياتها

¹⁶ راجع تقرير "الجهة الإسلامية السورية": قوة متطرفة جديدة"، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى.

¹⁷ راجع تقرير "هل هو الجهاد؟ المعارضة الأصولية في سوريا" مجموعة الأزمات الدولية.

¹⁸ راجع عملية نسف حاجز السلام، 8 حزيران 2012 على موقع يوتيوب.

¹⁹ راجع فقرة التمويل من البحث.

²⁰ راجع "كتائب أحرار الشام: غنائم اقتحام نقطة تابعة للواء 85 ميكا"، "معركة أبلري حلب - تحرير مستودعات التسليح في خان طومان"، "تمشيط مبنى القيادة بمستودعات الذخيرة"، "غنائم المجاهدين من كتيبة الدفاع الجوي حجيرة"، "الغوطة الغربية - غنائم من الفرقة 7 لأول مرة صواريخ".

بالدبابات والبيكا والشيلكا وصواريخ الغراد وفاغوت والهاون وصواريخ الكونكورس وحشوات الآر بي جي، بل وغنمت عدداً من طائرات الهيلوكوبتر والطائرات الحربية والتدريبية القادرة على العمل.

اكتسبت الحركة رصيدها في البداية من خلال عمليات نسف الحواجز ومحاصرتها في ريف إدلب وريف حلب وريف حماة، وقد كانت أحد أكبر الفصائل المشاركة في تحرير ريف إدلب الذي تحوّل إلى معقل المعارضة الأشد شراسةً في لحظات ركود الثورة عسكرياً، وكذلك الأمر بالنسبة لريف حماة، وقد تمكنت بالتعاون مع حركة الفجر الإسلامية التي اندمجت معها لاحقاً من المساهمة الفعالة في تحرير ريف حلب وأصبحت أحد أهمّ التشكيلات المسيطرة على حلب وريفها، كما استطاعت التغلغل في ريف اللاذقية كسلى وجبل التركمان عبر كتائب أنصار الشام وكانت التشكيل الأكبر الذي قاد عملية تحرير ريف الرقة ومدن الطبقة وتل أبيض وغيرها قبل الدخول إلى الرقة وتحريرها، كما أدّت دوراً وازناً في تحرير بعض القطع العسكرية في درعا والاستيلاء على معايرها الحدودية وتمتاز بحضورٍ عسكريٍّ جيدٍ في دير الزور وغوطة دمشق. وركزت على مهاجمة القطع العسكرية واغتنام أسلحتها وأدّت دوراً قيادياً في معارك تحرير المطارات²¹ كمطار تفتناز وكويرس والجراح والضبعة والنيرب، وقد غنمت عدداً من طائراتهم التدريبية كما أدّت دوراً قيادياً في معارك تحرير سجن إدلب وسجن حلب وتحرير معسكر الشبيبة وحصار القطع العسكريّة المحيطة بمدينة إدلب وحصار الجزء الغربيّ من مدينة حلب، كما ساهمت في معارك المعابر التي افتتحتها جبهة النصرة والتشكيلات العشائريّة ضدّ تشكيلات حزب العمال الكوردستاني المتحالف مع النظام في سيري كانيه وكوباني وغيرها من مناطق الشمال.

لا تشترط الحركة الكثير على العناصر الراغبة بالانتماء لها وتقوم بتأهيلهم في معسكراتٍ خاصة²² قبل الالتحاق بالجهات، وترى في كتائب الجيش الحرّ حليفاً وصديقاً، وكثيراً ما نشر نشاطها الإعلاميّون عمليات الكتائب باسم الجيش الحر، كما لم يعترضوا على محاولة قناة الجزيرة، التي تمتاز بعلاقاتٍ ممتازةٍ معهم، إدراجهم في إطار الجيش الحرّ إعلامياً، وتحاول هذه المرونة مخاطبة أفراد هذه الكتائب وزعمائها المحليين لاستقطابهم ودمجهم في إطار الحركة، وتسعى الحركة عموماً إلى تأدية دور الوساطة في نزاعات الكتائب الأخرى، كما تحاول اللجوء إلى الحلول الدبلوماسية والاحتكام إلى الهيئات الشرعية في نزاعاتها مع الكتائب الأخرى على الرغم من غلبتها العسكريّة الظاهرة، فرغم قيام الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) باغتيال أحد قيادات أحرار الشام في بنش وتملص داعش من كلّ أشكال الاحتكام إلى الهيئة الشرعيّة أو إلى لجنة شرعيّة مشتركة بين الفصيلين إلا أنها لم تقم بالردّ العسكريّ على ذلك، واكتفت بإصدار بيانٍ يحاول النيل من داعش وتأييب الرأي الشعبيّ ضدّها²³.

²¹ راجع تقرير " قصة السيطرة على مطار تفتناز العسكري " موقع قناة الجزيرة الفضائية.

²² راجع " حركة الفجر || معسكر الفجر للإعداد المادي والإيماني " على موقع يوتيوب.

²³ راجع " المكتب الشرعي : بيان مجريات التحقيق في مقتل أبي عبدة البنشي " على الموقع الرسمي لحركة أحرار الشام الإسلامية.

وللحركة علاقاتٌ يسودها المدُّ والجزر مع قيادات الجيش الحر²⁴ حيث كان للحركة ممثلٌ في مجلس القيادة العليا العسكرية المشتركة بزعامة سليم إدريس، وقد تمكّنت من الحصول على دعمٍ وازنٍ من خلال هذه القناة²⁵، ولكنها في الوقت نفسه قادت نشاطاً يسعى إلى خلق جبهةٍ جديدةٍ للتشكيلات الإسلامية رداً على تشكيل تلك القيادة المشتركة حيث ساهمت بتشكيل جبهة ثوار سوريا²⁶ وأعلنت بعد مدّةٍ بسيطةٍ تعليق مشاركتها في الجبهة لابتعادها عن الخطّ الإسلامي الصريح ومحاولة بعض مؤسّسها ربطها بالواجهات السياسيّة الرسمية للثورة كالمجلس الوطني²⁷، وتسعى الحركة منذ فترةٍ إلى خلق واقعٍ سياسيٍّ جديدٍ يتوازى مع الحضور المتزايد للحركة وحلفائها كلواء التوحيد ولواء صقور الشام ولواء الإسلام وألوية أحفاد الرسول، حيث تسعى إلى زيادة الوزن السياسيّ لهذه التشكيلات وهو ما يثير العديد من الخلافات بين الحركة وحلفائها من جهةٍ وقيادات الجيش السوري الحرّ من جهةٍ أخرى²⁸.

تمتاز الحركة بعلاقاتٍ مميزةٍ مع جبهة النصرة على الصعيد العسكري، وأغلب عملياتها العسكريّة الكبرى جرت بالتنسيق مع الجبهة، ويرى أبو عبد الله الحموي أن "جبهة النصرة ككلّ المكونات الموجودة، تعاملنا معها على أساس أن هناك هدفاً مرحلياً نسعى جميعاً لتحقيقه وهو إطاحة هذا النظام .. وعليه فقد قمنا بعملياتٍ عسكريّةٍ مشتركةٍ عديدةٍ ورأينا منهم صدقاً في العمل وثباتاً وبسالةٍ فلم يمنعنا ما جرى مثلاً من تصنيف أميركا من العمل .. معهم" ولكن الحركة تختلف سياسياً مع الجبهة فقد أصدرت بياناً،²⁹ إثر انتقال الخلاف بين البغدادي والجولاني إلى الإعلام وإعلان البغدادي إقامة الدولة الإسلاميّة في العراق والشام ومبايعة الجولاني للظواهري، أكّدت فيه أن هذه الخطوة من شأنها "أقلمة الصراع" وابتعاداً عن أولوية إسقاط النظام التي "لا شيء بعد الإيمان أوجب منها ولا شيء يقدم عليها" وأنها شكّل من أشكال "فساد الوضع" حيث إن "إعلان البغدادي لم يجمع المتفرّقين ولا ألّف بين المتنازعين" مع التأكيد على "أن قيام دولةٍ إسلاميّةٍ راشدةٍ تقيم العدل والقسط بين رعايانا هدفاً نسعى إليه بوسائلٍ مشروعَةٍ، ونراعي في ذلك مقتضيات الوضع وحالة الأمة المغيبة عن دينها في هذا البلد طوال نصف قرنٍ من الزمان".

²⁴ راجع تقرير "اتفاق ثوار سوريا على تعزيز التعاون الميداني" موقع قناة الجزيرة الفضائية.

²⁵ راجع تقرير "أحرار الشام" تتسلم 250 صاروخ كونكورس " صحيفة الشرق الأوسط.

²⁶ راجع تقرير "هل تحتاج الثورة السورية جبهة جديدة؟" موقع قناة الجزيرة الفضائية.

²⁷ راجع "بيان وقف التعليق وإعادة انضمام كتائب أحرار الشام لجبهة ثوار سوريا" موقع الحركة الرسمي.

²⁸ راجع تقرير "تشكيل لجنة لحل الخلافات بين الكتائب المقاتلة وأركان "الحر" " صحيفة الشرق الأوسط.

²⁹ راجع "بيان هام من حركة أحرار الشام الإسلامية حول جبهة النصرة وإعلان الدولة الإسلامية" على موقع الحركة الرسمي ويجدر الملاحظة أن الاقتباسات في هذه المفردة مقتبسة من هذا البيان.

الهوية الأديولوجية

تعتمد حركة أحرار الشام السردية السنية في فهم الصراع السوري، فالثورة السورية³⁰ "ثورة شعبية انطلقت من المساجد وهتفت بتوحيد الله وإسقاط الطغاة، ثم حملت السلاح ذوداً عن الدين ودفاعاً عن المستضعفين" وقد علمت الحركة أن³¹ "الأمر لن ينقضي بمسيرات احتجاج أو اعتصامات في ميادين أو ساحات عامة على أهميتها" لذلك قامت كتائب أحرار الشام³² "أولى الكتائب المنظمة وجوداً وهي كتائب ومجاميع مؤمنة، عنيفة الوجود، أطر الإسلام عملها، مستقلة، وليست امتداداً لأي تنظيم أو حزب أو جماعة، تقاتل في سبيل الله تذود عن حياض الدين وتذب عن المستضعفين" في وجه "النظام الطائفي المعتدي على الأمة ومدراتها".

والحركة كغيرها من التشكيلات السلفية لا تلتزم بعلم الاستقلال وتستبدله براءة بيضاء عليها رمز صقر واسم الحركة كما تلتزم³³ "شريعة الله الغراء وإنزالها على واقع الكتائب وفق موازنة المصالح والمفاسد وضوابط السياسة الشرعية." و تعمل "على إرساء نظام حكم إسلامي عادل راشد بوسائل مشروعة و برؤية إستراتيجية" ولكنها تؤكد على ضرورة الأخذ "بعين الاعتبار واقع أهلنا في سورية بعد عقود من ممارسات نظام البعث ومحاولاته الدؤوبة لحرف منهج التفكير لدى العامة من أبناء شعبنا"

ولكن الحركة تمتاز عن غيرها من التشكيلات السلفية بمحاولتها إسباغ مشروعها طابعاً مجتمعياً شاملاً، فهي³⁴ "تسعى إلى بناء مجتمع إسلامي حضاري في سوريا يحكم بشرع الله الذي ارتضاه" وتأكيداً على ذلك يرى أبو عبد الله الحموي، قائد حركة أحرار الشام وعقلها المدبر، أن³⁵ "الجهاد من حيث كونه حالة تتصف بالعنف والشدة، لن يورث الانتساب له تكريس الولاء وباقي جوانب الرحمة في نفوس الأخوة مهما بلغ الجهاد من علو الشأن ورفع المكان في الإسلام" وعليه فإنه يعتبر أن "حركة أحرار الشام حركة إسلامية مجاهدة لا حركة جهادية". وتحاول الحركة أن تتحول إلى منصة من منصات عملية³⁶ "إعداد القيادات العلمية في شتى مجالات الحياة" كما يمكن أن نلاحظ مفردات جديدة على أدبيات السلفية التقليدية ومستقاة من مفاهيم حديثة، فلغة موثيق الحركة لغة مستمدة من قاموس الحداثة وموسومة بصبغة إسلامية توفيقية، فما يحدث في

³⁰ راجع حاسب أبو عبد الله الحموي على تويتر.

³¹ راجع ميثاق كتائب أحرار الشام "هل أتاك حديث الكتائب؟" على موقع الحركة الرسمي.

³² المرجع السابق

³³ راجع "أهداف الكتائب" على موقع الحركة الرسمي.

³⁴ راجع ميثاق الجبهة الإسلامية على موقع حركة أحرار الشام الرسمي.

³⁵ راجع حاسب أبو عبد الله الحموي على تويتر.

³⁶ راجع ميثاق الجبهة الإسلامية على موقع حركة أحرار الشام الرسمي.

سوريا ثورةً من أجل الحرية ذات طابعٍ إسلاميٍّ، وتحرص على الابتعاد عن مقولاتٍ كـ"الخلافة الإسلامية" وتستبدلها بمقولاتٍ كـ"الحكم الإسلامي الراشد والدولة الإسلامية" وتؤكد أن أحد أهدافها هو "إعادة بناء سوريا على أسسٍ سليمةٍ من العدل والاستقلال والتكافل، بما يتماشى مع مبادئ الإسلام" وكذلك تؤكد على أنها "تسلك في سبيل تحقيق أهدافها العمل المؤسسي بما يحقق التكافل والتعايش بين مكونات المجتمع السوري" وتؤكد الحركة رفضها للطابع النخبوي الذي ميّز تشكيلات القاعدة وتؤكد على طابعها التفاعلي الشعبي³⁸ " فلا جرم أن معركة إسقاط النظام تمرُّ عبر قناة الثورة الشعبية لا جهاد النخب مهما بلغت معايير الانتخاب والاصطفاء " لتبدو الحركة وكأنها أول من استوعب درس سقوط العقلية الطليعية الذي ظهره الربيع العربي.

لا يقتصر اختلاف الحركة عن تنظيم القاعدة والتشكيلات السلفية التقليدية على رفض النزعة النخبوية والطابع التفاعلي الشمولي لمشروعها وحدائدها وإنما في تأكيدها في مختلف وثائقها على حرمة الدم³⁹ " فالأصل في جهادنا ألا يقع أي ضررٍ على المدنيين، ووقوعه عندنا يدخل في دائرة الشبهات لكون الغاية الشريفة لا تبرر انتهاك حرمة الدم".

وعلى صعيد علاقتها بالأقليات الإثنية والدينية والطائفية، تدافع الحركة في مواثيقها عن وحدة سوريا وترفض أي مشروعٍ تقسيميٍّ على أساسٍ دينيٍّ أو طائفيٍّ أو قوميٍّ وتؤكد على ضرورة "التعايش بين أبناء الوطن الواحد مهما اختلفت مشاربهم وعقائدهم ويترتب على ذلك حقوق وواجبات متبادلة وتجعل أصل حرمة الدماء والأموال والأعراض مشتركاً بين الجميع " ولكنها تسعى إلى تكريس شكلٍ من أشكال الذميمة المواطنة والسياسية ف" لا مساس بشيء" مما سبق ذكره إلا وفق "أحكام الشريعة الإسلامية"⁴⁰ وتؤكد رفضها للرؤية الفسيفسائية التي سادت في عهد البعث ف:"الدمج بين الأديان والطوائف أو الخلط فيما بينها أمرٌ مرفوضٌ شرعاً بل وفيه عدوانٌ على تلك الأديان والملل، وهو من الغشِّ الديني والثقافي"⁴¹. وتبدي الحركة موقفاً متقدماً على صعيد علاقتها مع الكورد حيث تؤكد على إيمانها ب " مظلومية الشعب الكردي لعقودٍ طويلةٍ بسبب السياسات الشوفينية القومية التي مارسها عصابات الحكم الجبري القمعي في سوريا" وأن "للكردي حقوقاً ثقافيةً ولغويةً وسياسية" وأن "اللغة الكوردية لغةٌ أصيلةٌ في سوريا ومن حقِّ أبنائها أن يدرسوها ويتعلموها"⁴².

تهتمُّ الحركة بصورتها على الإعلام، فللحركة مكتبٌ إعلاميٌّ قويٌّ يسوق عملياتها على شبكات التواصل ومختلف قياديتها نشطون على تويتر، كما تبعد عن أساليب تنظيم القاعدة الإعلامية وتحاول تمويه عملياتها "الاستشهادية" وتتسامح مع

³⁷ راجع ميثاق الجبهة الإسلامية على موقع حركة أحرار الشام الرسمي.

³⁸ راجع حاسب أبو عبد الله الحموي على تويتر.

³⁹ راجع "أهداف الكتائب" على موقع الحركة الرسمي.

⁴⁰ راجع ميثاق الجبهة الإسلامية على موقع حركة أحرار الشام الرسمي.

⁴¹ المرجع السابق.

⁴² الاقتباسات من "رؤية المكتب السياسي للجبهة الإسلامية السورية المتعلقة بالقضية الكردية" على موقع الحركة.

وصفها كفصيلٍ من فصائل الجيش الحرّ، وللحركة علاقاتٌ ممتازةٌ مع شبكة الجزيرة الإعلامية ولم يتمّ تسجيل انتهاكاتٍ من قبلها بحق الصحفيين بل وقامت بعملية تحرير خمسة من الإعلاميين الأجانب التابعين لشبكة أن بي سي الأميركية كان قد اعتقلهم شبحة النظام.

المرجعيات النظرية

يشكل الخوض في المرجعيّات النظرية للحركات السلفية السورية الراهنة واحداً من أبرز مغامرات العمل البحثي نظراً لتداخل هذه المرجعيّات وتباين أصولها التاريخية والجغرافية والاجتماعية والثقافية والسياسية. فلا يمكن الادعاء أن لهذه الحركات استمراريةً تاريخيةً في الواقع الوطني السوري، حيث لم يعرف التاريخ السوري الحديث وجوداً وازناً لهذا التيار، واقتصر على عددٍ من الظواهر النخبوية كاجتهادات الشيخ محمد الألباني والمغامرات الجهادية كمغامرة الطليعة المقاتلة بقيادة مروان حديد في ستينيات القرن الفائت. وتقتصر جهود المرجعيّات هذه الحركات على الشكل الدعوي والمناظرات الفقهية والمقاربات الإفتائية رافضةً إعادة إنتاج منظومة كلامية قادرة على بناء شكلٍ عقلائيٍّ للعقيدة الإسلامية، فحتى اليوم لم يفرز الإسلاميون السوريون عموماً انتاجاً إسلامية حقيقية قادرة على تسويق فكرها وتهذيب طروحاتها وإكسابها قوالبَ فكريةً وإعلامية حديثة. بل ويمكن اعتبار محطة النفي وتجربة الجهاد العالميّ في أفغانستان والعراق وغيرها المحطات المؤسسة لوعي نخب التيار السلفي السوري وخبراته.

قام النظام السوري بتصفية كلّ أشكال وجود الإسلام السياسي عبر مجزرة حماة وتدمير وجسر الشغور وغيرها، كما ساند الاتحاد السوفييتي سياسياً في غزوه أفغانستان، وساهم في عملية ثعلب الصحراء ضدّ النظام العراقي الذي كان يخوض حرباً ضاريةً مع نظام الخميني "الرافضي" كما قام بالتلاعب بالآلاف الجهاديين الذين حاربوا القوات الأمريكية الغازية للعراق، وساهم فيما بعد بملاحقة النخب الإسلامية إثر إبرامه لصفقات التعاون الأمنيّ في مجال مكافحة الإرهاب مع الحكومة الأمريكية وانخرط بفعالية في المشروع الأقليمي لإيران، وقد شكل هذا السلوك السياسي للنظام سبباً كافياً لعداء السلفيين له ومحاربه عدا عن طبيعته المذهبية والتسلطية.

شكل السوريون ما يقارب 15% من مجاهدي العراق وعرف المنفى حضوراً وازناً للنخب السلفية السورية، وقد قاموا باكتساب خبراتهم وتأهيلهم عبر جهادهم ودعمهم للتيارات الجهادية في أفغانستان والعراق، وتشكل أسماء كآبي مصعب السوري، الذي يعدّ أحد أبرز منظري وإعلاميي تنظيم القاعدة، وأبو بصير الطرطوسي وغيرها خير مثالٍ لهذه النخب. وقد

شكلت النخب السلفية السورية بطانةً وازنةً لطح الشيخ الشهير عبد الله عزام، الذي كان أحد أبرز قيادتي ومنظري القاعدة، والذي اختلف مع ابن لادن والظواهري على إستراتيجيات عمل التنظيم، حيث دافع عن ضرورة ابتعاد المجاهدين الأجانب عن التحكم بالمصائر السياسية للبلدان التي يحاربون فيها، ورأى أن محاربة النظام الصهيوني يجب أن تكون الهدف الرئيسي للقاعدة لا أمريكا والأنظمة العربية.

بعد انفجار الثورة السورية وتسليحها، عاد عبد المنعم مصطفى حليلة، الملقب بأبي بصير الطرطوسي، من منفاه في بريطانيا إلى الأراضي السورية وأخذ ينشط في المجال النظري والدعوي لدعم الثورة السورية. ويشاع اليوم أنه أحد قيادتي حركة الفجر الإسلامية وأحد أبرز المقربين من لواء الحق اللذين يعملان في إطار حركة الشام الإسلامية. لذلك سأحاول دراسة أطروحاته على اعتباره مثالاً نموذجياً يمكن أن نلخص من خلاله طبيعة المرجعية النظرية للحركة.

تبدو تجربة الطليعة الإسلامية، التي بدأها مروان حديد في حماة مطلع الستينيات وقاد شعلتها في الثمانينيات عدنان عقلة⁴³ تجربةً ملهمةً لأبي بصير الطرطوسي الذي يغلب الظن أنه كان أحد مقاتليها وأن أخاه عبد القادر كان أحد المفقودين فيها كما تبدو ملهمةً لحركة أحرار الشام والتي تحتوي في صفوفها على حركة الطليعة الإسلامية وكتيبة الشهيد عدنان عقلة، وتبدو الكلاسيكيات السلفية لابن تيمية وابن القيم الجوزي ومحمد بن عبد الوهاب حاضرةً في أدبيات أبي بصير والحركة ولا يرى الشيخ أبو بصير رادعاً في الاعتراف بأنه وهابي⁴⁴ على الرغم من عدائه الشديد للنظام السعودي، ولا يكتفي بوصف النظام بالنصيري وإنما يزيد عليها، يهدي "شيخ الإسلام" ابن تيمية، صفة النظام القرمطي على الرغم من غياب أي صلة تاريخية تجمع العلويين النصيريين بالقرامطة الإسماعيليين، هذا وتشكل كتيبة ابن تيمية إحدى أكبر كتائب حركة الفجر الإسلامية.

ويستند أبو بصير على مظلومية إسلامية يعزّزها أن⁴⁵ "الكل يسكت عندما يقصف الطاغية النصيري بشار الأسد المساجد" في حين "ستسمع الأسطوانة التي تتكلم من غير كللٍ ولا مللٍ ولا توقف عن حرية الأديان والاعتقاد، وحرية العبادة لو كان الاعتداء على الكنائس، أو معابد الوثنيين" وكذلك يكثر من ذكر القيمة الخاصة لأرض الشام التي تظهرها الأحاديث النبوية، ومنذ وقت مبكرٍ من الثورة رأى أبو بصير أن⁴⁶ "شعار" الموت لا المذلة "قد انتهى مفعوله ودوره وزمانه، وقد آن أوان شعار "الجهاد ولا المذلة" "ويبدي عداءً شديداً للديموقراطية على اعتبارها صيغة⁴⁷ "يمكن استثمارها والاستفادة منها في تمرير كلِّ باطلٍ وشرٍّ وكذلك حاله تجاه العلمانية والأخوان المسلمين على حدٍ سواء" ولكنه يرى أيضاً أن "تغيب وإهمال العمل بمبدأ الشورى فيما بين المسلمين (أهم) أسباب تفرّق الأمة في هذا العصر وضعفها" ويحاول انتهاج الوسطية تجاه مسألة

⁴³ راجع صفحة "المعارضة الإسلامية للنظام الأسد" التي ينشر عليها أبو بصير تعليقاته.

⁴⁴ راجع "أبو بصير الطرطوسي. نعم أنا وهابي!" على موقع أبي بصير الرسمي.

⁴⁵ راجع صفحة "المعارضة الإسلامية للنظام الأسد" التي ينشر عليها أبو بصير تعليقاته.

⁴⁶ راجع صفحة "المعارضة الإسلامية للنظام الأسد" التي ينشر عليها أبو بصير تعليقاته.

⁴⁷ راجع صفحة "المعارضة الإسلامية للنظام الأسد" التي ينشر عليها أبو بصير تعليقاته.

التدخل الخارجي فيردُّ على رفض جبهة النصرة للتدخل الخارجي بالقول⁴⁸ "فمسألة الاستعانة بكافرٍ على كافرٍ شره مغلظ ومباشر، لا يمكن دفعه إلا من خلال هذا النوع من المساعدة أو التعاون تحت عنصر الإكراه، والضرورات مسألة مشروعة، قابلة للنظر والبحث" ويرى أنه "لا ينبغي محاكاة الأسلوب الجهادي في أفغانستان أو العراق .. واستخدام الأدبيات والكلمات نفسها، فأفغانستان وكذلك العراق محتلتان من قبل القوات الأمريكية والغربية، وحلفائهم من دول العالم، بينما سوريا محتلةٌ من قبل قرامطة النظام النصيري الأسدي الفاشي، وحلفائهم من روافض مجوس إيران، وحزب اللات، ومن ثمَّ لا يلزم كل ما يُقال في أفغانستان أو العراق أن يُقال في سوريا أو العكس" وتأتي هذه المقاربات في سياق سجالٍ حامٍ بينه وبين منظري وبيانات جبهة النصرة التي لا يتردد في وصف عملياتها بالانتحارية وكذلك يرى أن⁴⁹ "المبايعة لا تُعطى إلا للخليفة أو الحاكم العام الذي ترتضيه الأمة حاكماً عليها، أما أمراء الجماعات فهذه إمارةٌ استثنائيةٌ خاصة .. طاعتها خاصة ومقيدة فيما تمَّ التعاقد عليه تنتهي بانتهاء ما تم التعاقد عليه فالإمارة العامة هي للخليفة أو الحاكم العام للمسلمين، وليس لأحدٍ غيره!" ويؤكد على أن الإستراتيجية الأمثل هي جهاد الأمة حيث يراعي المجاهدون حاضنتهم الشعبية لا جهاد العصابة. ويظهر أبو بصير في تعليقاته على ميثاق الجبهة الإسلامية⁵⁰ على يمين الجبهة حيث يؤكد على ضرورة نزع الطابع الوطني للجبهة والتأكيد على أممية الإسلام ويدعو إلى التأكيد على اختلاف حقوق الرجل عن المرأة وإلى ضرورة التصريح بإقامة دولةٍ إسلاميةٍ عادلة.

النشاط الأهلي والمدني

في بيانها التأسيسي "هل أتاكم حديث الكتائب"⁵¹، تذكر كتائب أحرار الشام أن هدفها يشتمل على "إسقاط هذه العصابة المجرمة و تقويض أركانها، وتسعى لرفعة الأمة و الأخذ بأيدي أبنائها لجادة الخير و العمل على إرساء نظام حُكمٍ إسلاميٍّ عادلٍ راشدٍ بوسائل مشروعةٍ و برؤية إستراتيجيةٍ تأخذُ بعين الاعتبار واقعَ أهلنا في سوريةَ بعدَ عُقودٍ من ممارساتِ نظامِ البعث ومحاولاته الدؤوبة لحرف مَنهج التفكير لدى العامة من أبناء شعبنا ."، ويتضح مدى مرونة هذا الخطاب وابتعاده عن المفردات التي قد تستفز بعض الحساسيات المجتمعية، فلا يتمُّ الكلام عن خلافةٍ إسلاميةٍ موعودةٍ وإنما عن "حكمٍ إسلاميٍّ راشدٍ"، ولا يتم الكلام عن تنفيذٍ فوريٍّ لأحكام الشريعة وإنما عن نهجٍ تدريجيٍّ يراعي واقع السوريين بعد عقودٍ من محاولات النظام الأسدي محاربة المشاريع الإسلامية.

⁴⁸ راجع صفحة "المعارضة الإسلامية للنظام الأسدي" التي ينشر عليها أبو بصير تعليقاته.

⁴⁹ راجع صفحة "المعارضة الإسلامية للنظام الأسدي" التي ينشر عليها أبو بصير تعليقاته.

⁵⁰ راجع صفحة "المعارضة الإسلامية للنظام الأسدي" التي ينشر عليها أبو بصير تعليقاته.

⁵¹ هل أتاكم حديث الكتائب؟، الموقع الرسمي لحركة أحرار الشام.

وينطبق هذا النهج التدريجي المرن على مجمل فعاليات ونشاطات حركة أحرار الشام، ولاسيما في طريقة معالجتها لواقع المجتمعات الأهلية، فعلى الصعيد الأمني والعسكري والقضائي تسعى الحركة إلى بناء هوية وسمعة قائمتين على المرونة وحرمة الدم والاحتكام إلى الشريعة الإسلامية بعيداً عن المحسوبيات الأهلية والعشائرية والحزبية، وتشكل الحركة إحدى أهم مهندسي ما يسمّى بالهيئة الشرعية والتي تحاول أن ترسي مرجعية قضائية قائمة على الشريعة الإسلامية في المناطق المحررة، وقد شهدت الهيئات الشرعية مرحلة أولى تخللها اختلاط الشريعة الإسلامية بالمحسوبيات الجهوية والعشائرية والعسكرية وكان لحركة أحرار الشام وباقي الكتائب السلفية الوازنة الدور في تخليص الهيئة من تلك المحسوبيات واقتصارها على "حاكمية الشريعة" لتشكل في ذهن مواطن المناطق المحررة تجسيدا منطقياً لمقولة الدولة بوصفها "جوهرأ أخلاقياً متعالياً"⁵²!

كما تسعى الحركة إلى ضبط عناصرها ومحاسبتهم⁵³ وضبط نزعة استعراض السلاح لأفرادها وكافة النزعات السلطوية⁵⁴ كما تقلل من نشر الحواجز التابعة لها⁵⁵.

وعلى الصعيد الإغاثي والإداري والتنموي، للحركة مكتب إغاثي وتنموي فعال، حيث قامت بتشكيل عدد كبير من الجمعيات الخيرية التي تعمل على توزيع الحصص الإغاثية بطريقة منظمة ومؤسسية. كما ساهمت في حل العديد من الأزمات الغذائية عبر تأهيل عدد من الأفران⁵⁶ وتأمين الطحين لبعض المناطق المحرومة منه وتأهيل الطرق وحل أزمات الموارد المائية⁵⁷ كما تعمل على محاربة احتكار المحروقات عبر تنظيم دخولها من معابرها الحدودية بل وقد قامت بدفع الراوتب لقطاعات واسعة من موظفي الرقة بعد إيقاف النظام لرواتهم⁵⁸. ونظراً لسمعتها المميزة في هذا المجال استطاعت الحركة استقطاب العديد من الجهود الإغاثية الدولية وتأدية دور قناة توزيع هذه المنح الإغاثية. كما قامت بالتوزيع المجاني لأدوية معمل تاميكو بعد تحريره على أهالي الغوطة الشرقية المحاصرة⁵⁹.

ولا تكتفي الحركة بالجهد الإغاثي التقليدي وإنما تعمل على إكسابه بعداً تنموياً، فعند تحرير مواقع جديدة تحاول السيطرة على المرافق العامة وتأهيلها لتفعيل طاقات مجتمعية في هذه الموارد بما يساهم في مكافحة البطالة والفقر وزيادة حظوتها في

⁵² مقولة هيجيلية تحاول تحديد مفهوم الدولة.

⁵³ يمكنكم مراجعة صفحة الناشطة والإعلامية في معهد السلم والحرب الدولي زينة أرحيم على موقع فيسبوك والتي تعرضت لتجاوز لفظي من أحد العناصر على حاجز تابع للحركة وتمت محاسبته.

⁵⁴ أصدرت الحركة بيان "الرقة: بيان هام يقتضي فصل مجموعة قامت بتجاوزات مسيئة" أعلنت فيه فصل مجموعة من مقاتليها بسبب اعتدائهم على متظاهرين ضد الحركة في مدينة الرقة.

⁵⁵ يفاخر القائد العسكري للكتائب أبو طلحة على حسابه على تويتر أن عدد حواجز أحرار الشام لا يتجاوز العشرة في أكثر من 30 مدينة وقرية.

⁵⁶ راجع "حركة أحرار الشام - تقرير عن وضع الأفران في مدينة الرقة" على موقع يوتيوب.

⁵⁷ راجع "حركة أحرار الشام - تقرير مشروع ضخ المياه في المناطق الشمالية" على موقع يوتيوب.

⁵⁸ راجع "الرقة: عن واقع الكتائب العسكرية، وإدارة المدينة المحررة، والثورات اللاحقة"، محمد العطار، مجموعة الجمهورية.

⁵⁹ راجع "جند الملاحم: بيان بخصوص أدوية معمل تاميكو المحرر بريف دمشق" على موقع الحركة.

المجتمع الأهلي للمنطقة ويشير قدرة مكتبها الإعلامي والهندسي على قرصنة موقع الجيش الإلكتروني السوري⁶⁰ إلى نجاحها في استقطاب شرائح نوعيّة من الطاقات الشبابيّة والعلمية.

على الصعيد الثقافي والعقائدي، تعمل الحركة على تأهيل المدارس وتعديل مناهجها بشكلٍ مرّن يقتصر على زيادة مساحة المواد الدينية والدعوية وإزالة المواد البعثية دون المساس بباقي محتويات المناهج. كما تعمل على إنشاء الجمعيات الدينية التربوية⁶¹ كجمعيات تحفيظ القرآن وتقوم بنشر المطويات الدعوية والكراسات الدينية، وتسعى إلى المشاركة في فضاء الجامع دون محاولة الهيمنة على الجوامع أو الاصطدام مع المرجعيات الدينية التقليدية عبر استبدال شيوخ الجوامع وغيرها من الحركات التي تلجأ لها الفصائل الأكثر تطرفاً كداعش والنصرة كما تمنع وضع شعارات الكتائب أو غيرها من الشعارات في فضاء الجامع منعاً باتاً⁶².

الانتهاكات الحقوقية

يشكل احتكام حركة أحرار الشام للشريعة الإسلامية واعتمادها كمرجعيةٍ وحيدةٍ للهيئات الشرعية التي تقوم بتأسيسها أو المشاركة فيها مصدراً من مصادر الانتهاكات التي تقوم بها حركة أحرار الشام، فالشريعة وفق هذه الحركة سرعان ما تختزل عند التنفيذ إلى قانون عقوباتٍ عماده الجلد والقطع والجدع وغيرها من الإجراءات الشرعية التي لم يتمكن الفكر الإسلامي من تقديم برهانٍ حقيقيٍّ على فواتها دينياً وبلورة صيغٍ شرعيةٍ عصريةٍ بديلة ترى الإنسان "نفساً أماراً بالسوء" يجب معاقبتها بتأهيلها عوضاً عن معاقبتها بإيذاءها.

وتأتي حادثة الجلد الشهيرة في سراقب، التي تقضي بجلد شخصين لقيام أحدهما بتزويج ابنته الأرملة للآخر دون مراعاة فترة العدة الشرعية التي يجب أن تمرّ بها، والتي قامت اللجنة الأمنية التابعة للهيئة الشرعية التي أسستها جبهة النصرة وحركة أحرار الشام بتنفيذها، لتوضّح ارتباك الحركة في هذا المجال، ففي الوقت الذي أصدرت فيه الحركة بياناً، يعلن زيف هوية وادعاءات أحد نشطاءها الإعلاميين الذي صرح على شاشة تلفاز الأورينت أن الحادثة صحيحة وأن حركة أحرار الشام ترى في الحادثة شكلاً من أشكال تطبيق الشريعة، أثبت تحقيق ميدانيّ لشبكة بي بي سي⁶³ صحة الحادثة وإشراف أحرار الشام على

⁶⁰ راجع " «أحرار الشام» المعارضة «تدمر» موقع «الجيش الإلكتروني» النظامي " صحيفة الحياة اللندنية.

⁶¹ راجع " الإعداد الإيماني والتعليبي للأطفال في حلب - حركة أحرار الشام الإسلامية " على موقع يوتيوب.

⁶² راجع " بيان هام من الهيئة الشرعية حول رفع الشعارات في المساجد " على الموقع الرسمي للحركة

⁶³ راجع " خارج حصون الأسد: محاكم شرعية وسحب صراع بين المعارضين "، موقع شبكة BBC العربي.

اللجنة الأمنية التي نفذت حكم الجلد، ويبدو أن هذا السجل لا يكتسب سخوته إلا في الإعلام فقد أضحت هذه الانتهاكات شكلاً من أشكال القانون الذي يحكم المناطق المحررة.

خلاف هذا الشكل من الانتهاكات، المشروعة والشرعية بنظر أحرار الشام، لا يمكن أن نلاحظ وجود انتهاكاتٍ وازنة، بل وتتبيّن طروحاتٍ متقدّمةً على غيرها من القوى السلفية فهي تعتبر أن "للمرأة حقوق الرجل وعليها واجباته والعلاقة بينهما تكاملية"⁶⁴ و تبدو الحركة أكثر فصائل المعارضة انضباطاً سواء في التعامل مع المجتمعات الأهلية أو في التعامل مع أسرى الحرب وفق ما يؤكدّه العديد من الناشطين⁶⁵، بل وتمتاز الحركة بدرجةٍ معقولةٍ من تفعيل مبدأ الرقابة والمحاسبة لأفرادها بشكلٍ علنيٍّ عبر إصدار البيانات التي توضح التجاوزات والعقاب، فقد قامت الحركة بفصل إحدى مجموعاتها بسبب اعتدائهم على متظاهرين ضدّ الحركة في الرقة، حيث قاموا بإطلاق الرصاص الحي ودعس أحد المتظاهرين⁶⁶ كما قامت بإصدار بيانٍ توضّح فيه براءتها من مجزرة قرية المدمومة في ريف إدلب⁶⁷ وقامت بفصل مجموعةٍ أخرى من الحركة بسبب قيامهم بالاشتباك مع عناصر تابعين لفصائلٍ أخرى لأسبابٍ جهويّةٍ وشخصيّةٍ في وادي بردى⁶⁸.

هذا وقد كانت حركة أحرار الشام الحركة الإسلامية الوحيدة التي أصدرت تعليقا⁶⁹ على تقرير منظمة هيومن رايتس ووتش الذي يتهمها بالإضافة لفصائلٍ أخرى بالصمت على قيام عناصرها بإعدام مدنيين ينحدرون من الطائفة العلوية في معركة الساحل، ولكننا لا يمكن أن نغفل دلالة قيام المكتب السياسي بإصدار هذا البيان، في حين تصدر باقي البيانات دون ذكر المكتب الذي أصدرها. وتحاول الحركة، عموماً، الحفاظ على علاقاتٍ جيدةٍ مع المؤسسات الحقوقية الدولية وتؤكد في مواثيقها أنها ستحترم حقوق الإنسان بما يتوافق مع مبادئ الشريعة الإسلامية.

⁶⁴ راجع ميثاق الجبهة الإسلامية على موقع حركة أحرار الشام الرسمي.

⁶⁵ أجرى الباحث مقابلات مع ناشطين من الرقة وفيها، كالصحفي والناشط محمد عبد العزيز، الذي أقام في الرقة وسجونها ما يقارب العشرة أشهر كما أجرينا مقابلة مع ناشط من مدينة الرقة تحفظ عن ذكر اسمه لأسباب أمنية، وقد أكدوا ارتكاب الحركة لبعض التجاوزات ولكنها لم تكتسب، بحسبهم، الحجم الذي يحولها إلى سياسات ولم تحظ بمصادقة زعماء الحركة الميدانيين.

⁶⁶ راجع "الرقة: بيان هام يقتضي فصل مجموعة قامت بتجاوزات مسيئة" على موقع الحركة.

⁶⁷ راجع "ريف إدلب: بيان توضيحي حول أحداث قرية المدمومة" على موقع الحركة.

⁶⁸ راجع "بيان: مجريات قضية دير قانون. وادي بردى في ريف دمشق" على موقع الحركة.

⁶⁹ راجع "بيان المكتب السياسي: حول اتهامات "هيومان رايتس ووتش" ومعركة الساحل" على موقع الحركة.

خلاصة

بهزلة مرجعياتها الفكرية ونشاطها العسكري الدؤوب وهويتها الإسلامية الشعبوية ومشروعها السياسي والمجتمعي الغائم تركنا هذه الحركة وقريناتها، وتجبرنا على إجراء مراجعة نقدية جادة لموضوع تسميتها، فلم يعد من الممكن اختزالها بمسعى السلفية الجهادية، بعد انتقالها من الطابع النخبوي وإيجاد موطن قدم لها في مجتمعات الريف الأهلية واشتمالها على جنين مشروع مجتمعي متكامل يحولها من حركات جهادية إلى حركات إسلامية "مجاهدة"، على حدّ تعبير أبي عبد الله الحموي، كما أن انفتاحها على المجتمع وركونها إلى حامل مجتمعي وازن لم يعد يسمح لنا باختزالها بمسعى السلفية الحركية، حيث تمّ إدماج الجهاد بالنشاط السياسي والإعلامي بل وامتداد نشاطاتها إلى مجالات أخرى. تبدو حركة أحرار الشام أحد أهمّ مفرزات الريف السنيّ في سياق توليفة معقدة من الديناميات الرافعة، والتي تتمثل في عسكرة الصراع السوري ودعم القوى الإقليمية للقوى الإسلامية وتخليّ الغرب عن دعم التيارات الديمقراطية العلمانية وهزيمة مشروع الدولة الوطنية لقوى التحرر العربي، وتحولها إلى دولة التسلط والقهر والاستبداد واشتغال الدور الروحي للدين في فترات الأزمات والحروب، وعجز حراك النهضة العربية عن القيام بالإصلاح الدينيّ وبلورة فكر إسلاميّ حديث واشتغال الدينامية النفسانية للثورة السورية كثورة الإنسان المقهور⁷⁰ الذي يلجأ إلى السلفية والعنف والتغنيّ بماضي الأجداد للتوازن والدفاع عن نفسه ضدّ وضعية القهر المفروضة عليه من قبل الحاكم المتسلط.

مع اندلاع الثورة السورية، دخل السوريون إلى عالم سؤال الحرية، ولكنهم اليوم، بعد عسكرة الصراع وصعود التعبيرات الريفية، يجدون أنفسهم عالقين في سؤال الدولة⁷¹، فصعود هذه الحركة وأقرانها يثير تساؤلات حقيقية تمسّ طبيعة الكيان الوطني السوري وتوضح هزيمة المشروع المدنيّ وزيف المشاريع الطليعية. بل إن صعودها في سياق الربيع العربي وما حمله من ازدياد للعقليات الطليعية ومجتمعاته السياسيّة ونخبه الثقافية يفتح الباب على مراجعات جذرية لمفاهيم العلمانية والتنوير والدولة والوطن ويتطلب مقارنةً تفاعليةً تقدميةً عليها الإحاطة بمجمل هذا الواقع المعقد.

وضمن هذا الواقع البائس، يمكن للتفاؤل أن يجد موطن قدم إن نظرنا إلى صعود هذه النزعات على أنه مضي بالاسئلة الحقيقية إلى نهاياتها وشكل من أشكال تسييس الإسلام السياسي وتوطنه⁷² وانحلال المرجعية الإسلامية⁷³ وأن انتقال الثورة السورية من مرحلة العسكرة إلى مرحلة إعادة الإعمار وإفرازها لنخبها المدنية يمكن أن يشكل ديناميّة سياسية قادرة على

⁷⁰ راجع كتاب "التخلف الاجتماعي، دراسة في سيكولوجية الإنسان المقهور"، الدكتور مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي.

⁷¹ راجع سلسلة المفاهيم (مفهوم الحرية، مفهوم الدولة) التي أصدرها المفكر المغربي عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي.

⁷² راجع "توطين نقد الإسلام السياسي وتسييسه" سامر فرنجية، صحيفة الحياة اللندنية.

⁷³ راجع "السلفية السياسية" وعلمنة الحقل السياسي " السيد ولد أباه، صحيفة الاتحاد الإماراتية.

مسألة هذه الحركات وإجبارها على تهذيب مرجعياتها الفكرية ومشروعها السياسي إن تمكنت هذه النخب المدينية من إجراء مراجعات فكرية شاملة وعميقة بما يمكنها من المساهمة في تلك المرحلة وضبط إيقاعها.